أخوة. سواء بالحياة والممات. سواء بالحاجة للاكل والشرب والنكاح. سواء بالتكلم والتفكر اللذين يميزاننا عن العجماوات. سواء بالفرح والالم اذا فزنا أو خبنا. سواء بالخوف والرجاء في يومنا وغدنا.

ونحن سواء بالتفكر والعنا ... بتحصيل ما نحتاج في كل معمل
ترى أعجزنا ان نسالم بعضنا ... لنسلم من عدواننا والتقلقل
نرى أعجزنا ان نعاف رذائلا ... ونهجر أهواماً رمتنا باحبل

اللهم الهمنا رشدنا وأعنا في استثمار الخيرات الموهوبة لافكارنا إنك مفيض الخير، وأنت المستغني وحدك عن الغير.

ـ تتمة بقية ـ (ع ز)

آثار علماء المسلمين

نموذج من دلائل الاعجاز (*)

تمتاز كتب الامام عبد القاهر الجرجاني واضع فنون البلاغة (رحمه الله تعالى) على سائر الكتب التي ألفت من بعده بعدة مزايا منها أن عبارتها بليغة. وأساليبها رشيقة، ومنها تصوير المعاني شخوصا تامة سوية، حتى كأن المقولات ملموسة مرئية، ومنها كثرة إيراد الشواهد والامثلة على الوجه الذي اختاره الاوربيون ومقلدوهم في كتب التعليم لهذا العهد. واننا نورد هنا نموذجا من كتاب دلائل الاعجاز في علم المعاني وذلك من حيث انتهينا في الطبع بمطبعتنا (الكراسة أول الملزمة ٤٤). بين رحمه الله في فصول متعددة فساد رأي الذين ذهبوا الى أن الفصاحة والبلاغة صفة للفظ دون النظم والاسلوب باعتبار تصوير المعنى ثم ختم ذلك بفصل في الموازنة بين المذهبين فقال:

فصل

قد بلغنا في مداواة الناس من دائهم وعلاج الفساد الذي عرض في في آرائهم كل مبلغ، وانتهينا الى كل غاية. وأخذنا بهم عن المجاهل التي

(*) ان هذا النموذج نموذج للطبع أيضاً فالكتاب يطبع بهذه الحروف

كانوا يتسفون فيها الى السنن اللاحب ، ونقلناهم عن الآجن المطروق الى النمير الذي يشفي غليل الشارب ، ولم ندع لباطلهم عرقا ينبض الا كويناه ، ولا للخلاف لسانا ينطق الا أخرسناه . ولم نترك غطاء كان على بصر ذي عقل الا حسرناه ، فيأيها السامع لما قلناه ، والناظر فيما كتبناه ، والمتصفح لما دوّناه ان كنت سمعت سماع صادق الرغبة في أن تكون في أمرك على بصيرة ، ونظرت نظر تام العناية في أن يورد ويصدر عن معرفة ، وتصفحت تصفح من اذا مارس باباً من العلم لم يقنعه الا أن يكون على ذروة السنام ، ويضرب بالمعلى من السهام ، فقد هديت لضالتك ، وفتح لك الطريق الى بغيتك ، وهيّ لك الاداة التي التي بها تبالغ ، وأوتيت الآلة التي معها تصل ، فخذ لنفسك بالتي هي املأ ليديك ، وأعود بالحظ عليك ، ووازن بين حالك الآن ، وقد تنبهت من من رقدتك ، وأفقت من غفلتك ، وصرت تعلم ـ اذا أنت خضت في أمر اللفظ والنظم ـ معنى ماتذكر ، وتعلم كيف تورد وتصدر ، وبينها (١) وأنت من أمرها في عمياء ، وخابط خبط عشواء ، فصاراك أن تكرر ألفاظا لاتعرف لشيء منها تفسيرا ، وضروب كلام للبلغاء ان سئلت عن اغراضهم فيها لم تستطع لها تبيينا ، فانك تراك تطيل التعجب من غفلتك ، وتكثر الاعتذار الى عقلك ، من الذي كنت عليه طول مدتك ، ونسأل الله تعالى أن يجعل كل مانأتيه ، ونقصده وننتحيه ، لوجهه خالصا ، والى رضاه عز وجل مؤديا ، وثوابه مقتضيا ، وللزلفى عنده موجبا بمنه وفضله ورحمته

(ثم عقد فصلا لكشف شبهة الذين جعلوا الفصاحة والبلاغة للالفاظ فقال :)

(١) قوله « وبينها » عطف على قوله « بين حالك الآن »

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم انه لما كان الغلط الذي دخل على الناس في حديث اللفظ كالداء الذي يسري في العروق، ويفسد مزاج البدن، وجب ان يتوخى دائبا فيهم مايتوخاه الطبيب في الناقه من تعهده بما يزيد في منّته، ويبقيه على صحته، ويؤمنه النكس في علته، وقد علمنا ان أصل الفساد وسبب الآفة هو ذهابهم عن أن من شأن المعاني ان تختلف عليها الصور، وتحدث فيها خواص ومزايا من بعد أن لاتكون، فإنك ترى الشاعر قد عمد الى معنى مبتذل فصنع فيه مايصنع الصانع الحاذق اذا هو أغرب في صنعة خاتم وعمل شنف وغيرهما من أصناف الحلي. فان جهلهم بذلك من حالها هو الذي أغواهم واستهواهم، وورطهم فيما تورطوا فيه من الجهالات، وادائهم الى التعلق بالمحالات، وذلك انهم لما جهلوا شأن الصورة وضعوا لانفسهم أساساً وبنوا على قاعدة، فقالوا انه ليس الا المعنى واللفظ ولا ثالث وانه اذا كان كذلك وجب اذا كان لاحد الكلامين فضيلة لاتكون للآخر ثم كان الغرض من احدهما هو الغرض من صاحبه ان يكون مرجع تلك الفضيلة الى اللفظ خاصة وأن لايكون لها مرجع الى المعنى من حيث ان ذلك زعموا يؤدي الى التناقض وان يكون معناها متغايرا وغير متغاير معا. ولما أقروا هذا في نفوسهم حملوا كلام العلماء في كل مانسبوا فيه الفضيلة الى اللفظ على ظاهره وأبوا أن ينظروا في الاوصاف التي أتبعوها نسبتهم الفضيلة الى اللفظ مثل قولهم: لفظ متمكن غير قلق ولا ناب به موضعه: الى سائر ماذكرناه قبل فيعلموا انهم لم يوجبوا للفظ ماأوجبوه من الفضيلة وهم يعنون نطق اللسان وأجراس الحروف ولكن جعلوا كالمواضعة فيما بينهم ان يقولوا اللفظ

وهم يريدون الصورة التي تحدث في المعنى والخاصة التي حدثت فيه ويعنون الذي عناه الجاحظ حيث قال : وذهب الشيخ الى استحسان المعاني والمعاني مطروحة وسط الطريق يعرفها العربي والعجمي والحضري والبدوي وانما الشعر صياغة (١) وضرب من التصوير : وما يعنونه اذا قالوا : انه يأخذ الحديث فيشنفه ويقرطه ، ويأخذ المعنى خرزة فيرده جوهرة ، وعباءة فيجعله ديباجة ، ويأخذه عاطلا فيرده حاليا ، : وليس كون هذا مرادهم بحيث كان ينبغي أن يخفى هذا الخفاء ويشتبه هذا الاشتباه ولكن اذا تعاطى الشيء غير أهله ، وتولى الامر غير البصير به ، أعضل الداء ، واشتد البلاء ، ولولم يكن من الدليل على انهم لم يجعلوا اللفظ الفضيلة وهم يريدونه نفسه وعلى الحقيقة الا واحد وهو وصفهم له بانه يزين المعنى وانه حلي له لكان فيه الكفاية . وذلك ان الالفاظ أدلة على المعاني وليس للدليل الا أن يعلمك الشيء على ما يكون عليه فأما أن يصير الشيء بالدليل على صفة لم يكن عليها فما لا يقوم في عقل ، ولا يتصور في وهم »

(ثم ذكر الاخذ والسرقة وبين ان الفاظ يكون بالاسلوب لا بالألفاظ ثم أورد الامثلة فقال)

ثم ان أردت مثالا في ذلك فان من أحسن شيء فيه ما صنع أبو تمام في بيت أبي نُخَيْلَة وذلك ان أبا نخيلة قال في مَسلمة بن عبد الملك :

أمسلم اني يا ابن كل خليفة ... وياجبل الدنيا وياواحد الارض
شكرتك ان الشكر حبل من التقى ... وما كل من أوليته صالحا يقضي
وأنبهت لي ذكري وما كان خاملا ... ولكن بعض الذكر أنبه من بعض (٢)

فعمد أبو تمام الى هذا البيت الاخير فقال :

(١) اي كلامنا الآن في انهم الخ مبتدأ وخبر (٢) وفي رواية ونوهت لي باسمي »

لتدزدت أوضاحي امتدادا ولم أكن بهيما ولا أرضي من الارض مجهلا (١)
ولكن أياد صادفتني جسامها أغر فأوفت بي أغر محجلا

وفي كتاب الشعر والشعراء للمرزباني فصل في هذا المعنى حسن قال: ومن الامثال القديمة قولهم «حرا أخاف على جاني كمأة لاقرا» يضرب مثلا للذي يخاف من شيء فيسلم منه ويصيبه غيره مما لم يخفه فأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال: (٢)

وحذرت من أمر فرّ بجانبي لم يخكني ولقيت مالم أحذر

وقال لبيد:

أخشى على أربد الحتوف ولا أرهب نوء السماك والاسد (٣)

قال وأخذه البحتري فأحسن وطفى اقتدارا على العبارة واتساعا في المعنى فقال:

لو انني أوفي التجارب حقها فيما أرت لرجوت ما أخشاه

وشبيه بهذا الفصل فصل آخر من هذا الكتاب (٤) أيضا أنشد (٥) لابراهيم بن المهدي:

يامن لقلب صيغ من صخرة في جسد من لؤلؤ رطب
جرحت خديه بلحظي فما برحت حتى اقتص من قلبي

ثم قال: قال علي بن هارون أخذه أحمد بن أبي فنن معنى ولفظا فقال: (٦)

(١) الاوضاح جمع وضح وهو البياض (٢) وقيل في هذا المعنى

نرى الشيء مما يتقى فنهابه ومالا نرى مما بقي الله أكثر

(٣) اربد هو أخو لبيد قتله الصاعقة بدعاء النبي (ص) وكان مع عامر بن الطفيل يريدان قتله عليه الصلاة والسلام (٤) يريد كتاب المرزباني (٥) أي المرزباني (٦) قد أكثر الشعراء تجاذب هذا المعنى وحسنه بعضهم بالاقتباس فقال

الى الله أشكو عشق ظبي مهفهف ومالي ومالي من يديه خلاص

أدميت باللحظات وجنته فاقتص ناظره من القلب

قال: ولكنه بنقاء عبارته وحسن مأخذه قد صار أولى به: ففي هذا دليل لمن عقل انهم لا يعنون بحسن العبارة مجرد اللفظ ولكن صورة وصنعة وخصوصية تحدث في المعنى وشيئاً طريق معرفته على الجملة العقل دون السمع فانه على كل حال لم يقل في البحتري انه أحسن فظنى اقتدارا على العبارة من أجل حروف * لو انني أوفي التجارب حقها * وكذلك لم يصف ابن أبي من بنقاء العبارة من أجل حروف * أدميت باللحظات وجنته *

(ثم عقد فصلا للموازنة بين نظم المعنى المتحد، في اللفظ المتعدد، فقال)

وقد أردت ان أكتب جملة من الشعر الذي أنت ترى الشاعرين فيه قد قالا في معنى واحد وهو ينقسم قسمين قسم أنت ترى أحد الشاعرين فيه قد أتى بالمعنى غفلا ساذجا وترى الآخر قد أخرجه في صورة تروق وتعجب، وقسم أنت ترى كل واحد من الشاعرين قد صنع في المعنى وصوّر. وأبدأ بالقسم الاول الذي يكون المعنى في أحد البيتين غفلا وفي الآخر مصوّرا مصنوعا ويكون ذلك إما لان متأخرا قصر عن متقدم وإما لان هذي متأخر لشيء لم يهتد اليه المتقدم ومثال ذلك قول المتنبي:

بِئْسَ اللَّيَالِي سِرْتُ مِن طَرَبِي شَوْقًا إِلَى مَنْ يَبِيتُ يَرْقُدُهَا

مع قول البحتري:

لَيْلٌ يُصَادِفُنِي وَمُرْهَفَةُ الْحَشَا ضِدَّيْنِ أَسْهَرُهُ لَهَا وَتَنَامُهُ

جرحت بعيني خده وهو جارح بعينيه قلبي والجروح قصاص

وأوردته في مورد الاحتجاج احدى الحسان فقالت

ألحاظنا تجرح حكم في الحشا ولحظكم يجرح حسا في الخدود

جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا فما الذي أوجب جرح الصدود

وقول البحتري :

وَلَوْ مَلَكْتُ زِمَامًا ظَلَّ يَجْذِبُنِي ... قَوْدًا لَكَانَ نَدَى كَفَّيْكَ مِنْ عَقَلِي (١)

مع قول المتنبي :

وَقَيَّدْتُ نَفْسِي فِي ذُرَاكَ مَحَبَّةً ... وَمَنْ وَجَدَ الإِحْسَانَ قَيْدًا تَقَيَّدَا

وقول المتنبي:

إِذَا اعْتَلَّ سَيْفُ الدَّوْلَةِ اعْتَلَّتِ الأَرْضُ ... وَمَنْ فَوْقَهَا وَالبَأْسُ وَالكَرَمُ المَحْضُ

مع قول البحتري :

ظَلِلْنَا نَعُودُ الجُودَ مِنْ وَعْكِكَ الَّذِي ... وَجَدْتَ وَقُلْنَا اعْتَلَّ عِضْوٌ مِنَ المَجْدِ

وقول المتنبي :

يُعْطِيكَ مُبْتَدِئًا فَإِنْ أَعْجَلْتَهُ ... أَعْطَاكَ مُعْتَذِرًا كَمَنْ قَدْ أَجْرَمَا

مع قول أبي تمام :

أَخُو عَزَمَاتٍ فِعْلُهُ فِعْلُ مُحْسِنٍ ... إِلَيْنَا وَلَكِنْ عُذْرُهُ عُذْرُ مُذْنِبِ

وقول المتنبي :

كَرِيمٌ مَتَى اسْتَرْهَبْتَ مَا أَنْتَ رَاكِبٌ ... وَقَدْ لَفَحَتْ حَرْبٌ فَإِنَّكَ نَازِلُ (٢)

مع قول البحتري

مَاضٍ عَلَى عَزْمِهِ فِي الجُودِ لَوْ وَهَبَ اللَّـ ... ـهُ بَأْسَ يَوْمِ لِقَاءِ البِيضِ مَا نَدِمَا (٣)

وقول المتنبي:

وَالَّذِي يَشْهَدُ الوَغَى سَاكِنُ اللَّـ ... ـهَ بِأَنَّ القِتَالَ فِيهِ ذِمَامُ

---

(١) أراد من الزماع العزم على الرجوع الى أهله (٢) لفحت الحرب هاجت بعد سكون ويقال لفحت العداوة بمعناه (٣) ظاهر انه يريد بالبيض النساء الحسان وإن تخيل هبة الشباب في ذلك اليوم لا بعد شوط وآخر غاية ينتهي اليها خيال الشاعر